المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير ودراسة القرآن

بقلم: ريتا فرج – قدم الاستشراق الكلاسيكي إسهامات بارزة في الدراسات الإسلامية والقرآنية. وعلى رغم سيطرة النزعة الإسقاطية والتلفيقية على العديد من مذاهبه، ليس من المفيد التغاضي عن الإنجازات المعرفية التي حققها. لقد نُظر إلى الإسلام لفترات طويلة من قبل الوعي الثقافي والسياسي الأوروبي، بأنه دين التعصب والعنف وبأنه «إلغاء للمسيحية»، وبأن محمداً «عدو المسيح»، وانعكس ذلك في الأدبيات والحوليات والوثائق الأوروبية، التي أتت في سياق الردّ اللاهوتي والعقائدي. وحتى القرون الوسطى بقيت الكتابات الأوروبية تستخدم مصطلحات مثل: «الإسماعيليون» أو «السراسنة» (Sarrasins) أو «الهاجريون»، حين كانت تتحدث عن المسلمين، ولم تستعمل عبارتي «مسلم» أو «إسلام» قبل القرن السادس عشر.

طغت على التفكير الأوروبي بدءاً من القرن الثاني عشر ميلادي، البحوث الهادفة للرد على القرآن والإسلام لمصلحة الدفاع عن العقائد المسيحية. يلاحظ الكاتب والأكاديمي رضوان السيد أن «تقسيم التعامل مع القرآن من جانب الأوروبيين حتى القرن الثامن عشر» أتى في مرحلتين كبريين: مرحلة العصور الوسطى المتأخرة (12-16م) ومرحلة عصر النهضة والأنوار؛ في المرحلة الأولى كانت المقاربات لاهوتية الطابع، وذات صبغة نقضية. وفي المرحلة الثانية صارت المقاربات شاملة تتعلق برؤية العالم، وعلاقات الشرق بالغرب والإسلام بأوروبا المسيحية. وفي القرن التاسع عشر، ما عاد هدف الاهتمامات بالقرآن عند كل من أبراهام غايغر وغوستاف فايل وشبرنغر وهرشفلد وموير الردّ على القرآن ونقضه، بل قراءته قراءة فيلولوجية تاريخانية، باعتبار ذلك المنهج السائد في سائر العلوم الإنسانية آنذاك». وللمنهج التاريخاني –كما يلفت السيد- «خاصتان بارزتان: أنه من نتاجات إنسانويات القرن الثامن عشر، وأنه مذهب وضعي. لكن فيه عرقاً معادياً للدين(…) وقد ساد في الدراسات الاستشراقية الحديثة اعتبار كتاب المستشرق الألماني البارز تيودور نولدكه «تاريخ القرآن» التأسيس العلمي الباقي للدراسات القرآنية في العصر الحديث» وسيطر «كتاب نولدكه على الدراسات القرآنية حتى مطلع الستينات، وقد أثر في الدارسين على الخصوص تقسيمه للسور المكية إلى ثلاث مراحل، وتحديد الخصائص الأسلوبية في كل مرحلة، وأثر في الدارسين ذهابه في أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم اتخذ من

نبوته أنبياء بني إسرائيل أنموذجاً له. ولذلك ولأن العهدين لم يترجما إلى العربية قبل الإسلام، فقد جمع النبي معلوماته عنهما شفوياً، وفي كثير من الأحوال، عن المنحولات والتفاسير والمأثورات الشعبية اليهودية والمسيحية، ولذلك تكثر في القرآن الألفاظ والموضوعات السريانية والآرامية والإثيوبية والعبرية» (راجع: السيد، رضوان، جوانب من الدراسات القرآنية الحديثة والمعاصرة في الغرب، موقع رضوان السيد).

يُعد المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (1900-1973) من بين المستشرقين الذي تأثروا بمنهجية تيودور نولدكه (1836-1830) واتضح ذلك في ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية في كتابه الصادر عام 1949 والذي ضمنه مقدمة طويلة، ورتب القرآن الكريم في هذه الترجمة وفقاً لما اعتبره أنه ترتيب نزول السور والآيات (3 أجزاء)؛ وفي طبعة أخرى عامة (1957) عاد إلى الترتيب الأصلي الوارد في المصحف.

ولد بلاشير في ضاحية مونروج (باريس) وسافر مع أبويه إلى المغرب عام 1915، حيث كان أبوه موظفاً في متجر، ثم موظفاً صغيراً في الإدارة الفرنسية في مراكش التي أعلنت عليها الحماية الفرنسية قبل ذلك بثلاث سنوات. قضى دراسته الثانوية في مدرسة فرنسية في الدار البيضاء، وتخرج في جامعة الجزائر عام 1922 من كلية العلوم الإنسانية، وعُيّن عام 1929 في «معهد الدراسات العليا المغربية» واستمر في عمله حتى عام 1935، وحصل على دكتوراه دولة عام 1936 من جامعة باريس برسالتين: الأولى عن «شاعر عربي من القرن الرابع هجري: أبو الطيب المتنبي» (يعتبر بلاشير أول من عرّف بالمتنبي في الثقافة العالمية)؛ والثانية ترجمة فرنسية لكتاب «طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي. عيّن بعد ذلك أستاذاً للغة العربية الفصحى في «المدرسة الوطنية للغات الشرقية» (باريس)، واستمر في هذا المنصب حتى عام 1950، حيث شغل كرسي اللغة والأدب العربيين في جامعة السوربون حتى تقاعده عام 1970 (راجع: بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، طبعة جديدة منقحة ومزيدة، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993، ص 127). وضع بلاشير مجموعة من الكتب بالفرنسية من بينها: «تاريخ الأدب العربي منذ البداية حتى نهاية القرن الخامس عشر» (ثلاثة أجزاء) (الجزء الأول: 1952، الجزءان الثاني والثالث: 1964 وقد توفي قبل أن يتممه) – نقل إلى العربية بترجمة إبراهيم الكيلاني (دار الفكر المعاصر بيروت، دار الفكر دمشق، 1998-؛ «مشكلة محمد» (1952) (لخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا عن حياة النبي)، «على خطى محمد» (1956)، « مقاطع من الجغرافيا العربية في القرون الوسطى « (1958 بالاشتراك مع هنري دارمون) هذا إلى جانب إصداره قواميس وكتب أخرى في اللغة العربية

وقواعدها منها: «قواعد اللغة العربية الكلاسيكية» بالاشتراك مع موريس غودفروي «عناصر اللغة العربية الكلاسيكية» (1958).
أعطى بلاشير اللغة العربية وآدابها الأولوية في أبحاثه، غير أن ترجمته للقرآن الكريم إلى الفرنسية (تمت أول ترجمة للقرآن في أوروبا بين عامي1141- 1143م إلى اللغة اللاتينية بتوجيه وطلب من الأب بيتروس فينيرا بيليس المعروف بـ «بطرس المبجل») والترتيب الذي اعتمده وشروحاته وتعليقاته في المقدمة، تركت صدى أوسع؛ ويرى كثيرون أن ترجمته تُعد الأفضل بين الترجمات الفرنسية. استند بلاشير إلى المنهج التاريخاني في دراساته للقرآن؛ وهذا المنهج يعتبر أن تفسير النص يجب أن يكون مرهوناً بتاريخه، فلا يمكن فصل أي نص عن تاريخه. «وقد عوّل المستشرقون كثيراً على هذا المنهج وإجراءاته في قراءة النصوص الأدبية والدينية، بغية القول إن النصوص بما فيها القرآن هي إنتاج منطقي وطبيعي للأفكار المنتشرة في تلك البيئة، كما نجد ذلك عند [المستشرق المجري] جولدتسيهر القائل إن «تبشير النبي العربي ليس إلاّ مزيج منتخب من معارف وآراء دينية عرفها واستقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثراً عميقاً» (بن عامر، محيي الدين، القراءة التاريخية ومقوماتها التأويلية عند المستشرق بلاشير لمقومات العقيدة الإسلامية في السور المكية، مؤمنون بلا حدود، 2016، ص6).
لجأ بلاشير في كتابه إلى الترتيب السور القرآنية وفق الأنموذج الذي وضعه نولدكه (السور المكية: سور الفترة المكية الأولى، سور الفترة المكية الثانية، سور الفترة المكية الثالثة؛ السور المدنية) مشككاً بصحة الروايات الإسلامية. في هذا السياق يقول: «تدل التجربة في ما يبدو على أن التقيد في المراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه، وأخذ به بعض المترجمين، يجعل قراءة المصحف سهلة بل ممتعة» (المرجع السابق). اعتبر «بلاشير» أن قراءة القرآن الكريم قراءة خاطئة لا تنضبط للتسلسل الزمني لتواتر السور»، داعياً إلى ضرورة البحث عن ترتيب زمني للسور، طالما أن الترتيب الذي عليه القرآن حالياً ترتيب مصطنع يشي بالروح الفوضوية التي كان عليها العرب في ذلك الوقت، الأمر الذي استدعى هجر هذا الترتيب والبحث عن آخر، ينضبط للتسلسل التاريخي في النزول: «من أجل فهم الكتاب المقدس للمسلمين تاريخياً يمكن الرجوع إلى التسلسل الزمني(…) من أجل مساعدة القارئ». وقد قسم سور القرآن إلى أربع مراحل، فاصلاً بين كل مرحلة من هذه المراحل الأربع بما تتميز به كل مرحلة عن الأخرى من سمات (الصنهاجي، أنس، القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية الفرنسية مناولة بلاشير أنموذجاً، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية).

طرح بلاشير أفكاراً لا تختلف كثيراً عمّا طرحه بعض المستشرقين بخصوص مسألة التأثير، أي تأثر الرسول بالنصوص الدينية اليهودية والمسيحية «إذ اعتبر أن القصص القرآني يرجع إلى مصدر يهودي مسيحي، معتمداً في حكمه هذا على ما زعم من وجود علاقات مستمرة، كانت تربط مؤسس الإسلام بالفقراء المسيحيين في مكة». وفي حديثه عن تكوين المصحف رأى أنه «خلال المرحلة الأولى المشتملة على الأعوام العشرين من الدعوة الإسلامية التي قام بها محمد نفسه، لم تزل المنزلات بكاملها تودع الذاكرة، وتنقلها الألسن إلى الآذان، ولا شك في أن مفهوم النصّ المكتوب كان حاضراً في أذهان المهتدين المكيين الذين لم يتجاوز عددهم المئة إبان الهجرة سنة 622م. ويبدو أن فكرة تدوين مقاطع الوحي المهمة التي نزلت في السنوات السالفة على مواد خشنة من الجلود واللخاف، لم تنشأ إلا بعد إقامة محمد في المدينة» (بلاشير، ريجيس: القرآن نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، ترجمة: رضا سعادة، دار الكتاب، بيروت، الطبعة الأولى، 1974، ص 29-27). خلص بلاشير إلى أن معظم نصوص الوحي كانت عند وفاة النبي محفوظة في الصدور، أما المكتوب فلا يتجاوز بعض نسخ جزئية دونت بطريقة بدائية، يصعب قراءتها إلا إذا كان القارئ يعي النص المكتوب في ذاكرته (راجع: الحلاق، ثائر، مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام: دراسة وصفية تحليلية، جامعة دمشق، متوافر على شبكة الإنترنت).

إن خلاصات المستشرقين الكلاسيكيين تم التعامل معها من قبل الباحثين والأكاديميين العرب وفقاً لثلاثة ردود: الأول: هجومي كونها تناقض القراءات التراثية؛ والثاني، تقريظي إذا تواءمت معها؛ والثالث: علمي سعى إلى قراءة الأدبيات الاستشراقية برؤية نقدية هادئة والبناء عليها والإفادة من مناهجها.

ترك منهج بلاشير تأثيراً في الدراسات القرآنية لدى المتخصصين في علم الإسلاميات وفي مقدمتهم محمد أركون، وإن تجاوزه لاحقاً باتجاه «المنهجية التعددية». يسجل البعض عليه مغالطات عدة، لكن لا يمكن التقليل من جهوده في ترجمة القرآن ودراسة الشعر والنثر العربيين.

المصدر: الحياة